بسم الله الرحمن الرحيم

بر الأمان

أبو الأعلى المودودي

المقدمة

ظهر للملك الحق، يعود علينا بالأمن والسعادة والرفاهية أن مقداراً يسيراً من العقل كان ليدرك الإنسان به أن أيقن الملك أن لهم الحق بأن يتمتعوا بالأمن والعز والكرامة وبإقامة شعائر دينهم.

نؤمن بقانون الإله الحي القيوم الذي لا فرق بنظره بين إنسان وإنسان إلا بالتقوى ونستيقن بأنه جل وعلا يعلم ما بطن وما ظهر وكل أمر من أمورنا. ولا بد أن يأتي اليوم الذي نقف بين يديه محاسبين عما جنته أيدينا إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

يتحدث الأستاذ أبو الأعلى المودودي في خطبته هذه عن الكون وعن خالقه الأوحد واجب الوجود ويبين لنا محاسن التقى ومحاذير الفسق والكفر ويضرب في ذلك بعض الأمثال لتقوية الحجج التي يبينها.

وإثباتاً للبراهين التي وردت في هذه الخطبة اخترت لكم اليوم قصة الهجرة الثانية للمسلمين إلى الحبشة أيام الرسول الأعظم عليه أفضل صلاة وأزكى سلام.

اشتد إيلام بني قريش للرسول محمد ﷺ ولمن اتبعه من المؤمنين مما دفع به إلى أن يأمر بعضهم بالهجرة، إلى بلاد الحبشة، وكان فيها نجاشي مسيحي صالح عادل مطلع على علم الأولين.

الناشر

بر الأمان
وجود الباري تعالى

سادتي وإخواني !

إذا جاءكم شخص فقال إن في السوق دكاناً لا صاحب له ولا من يأتي إليه بالبضائع ولا من يبيعها ولا من يحرسها وإنما يتم فيه كل شيء من نزول البضائع وبيعها وحرسها تلقائياً : تأتي إليه البضائع بنفسها ثم تباع وتصل إلى أيدي المشترين بنفسها، فهل تصدقونه في قوله هذا ؟ وهل تعترفون بأنه من الممكن أن تصل البضائع إلى دكان بغير من يأتي بها إليه ؟ وأن تباع بغير من يبيعها ؟ وتسلم من السرقة والنهب بغير من يحرسها ؟ تسألون أنفسكم عما إذا كان من الممكن أن تعترفوا بقول كهذا ؟ وهل ترون من الممكن أن يقبل قولاً سخيفاً كهذا عقل شخص حواسه سالمة ووعيه يخلو من الخلل والاضطراب.

وهبْ كذلك شخصاً يقول لكم إن في هذه المدينة مصنعاً لا صاحب له ولا مهندس فيه ولا عامل، وإنما تكوَّن المصنع بنفسه، وتشكل كل ما فيه من الآلات والأدوات بنفسه، وتركَّب كل ما لهذه الآلات من القطع في مكانه بنفسه، ولا تجري كل آلاته وماكيناته إلا بنفسها، ولا تخرج منها المنتجات بعد كمال تكوّنها إلا بنفسها، فقولوا لي بالله ولا تداهنوا إن شخصاً إذا قال لكم قولاً كهذا، أفلا تنظرون إليه نظرة ملؤها الحيرة والدهشة ؟ أوَلا ترتابون في أمره وتعتقدون أن المسكين قد أوتي من قبل عقله ؟ وهل تنتظرون قولاً سخيفاً كهذا من شخص غير مصاب في عقله ؟

ما لنا نذهب بعيداً ؟... هذه (لمبة) كهربائية متنورة أمام أعينكم ؟ فهل تبيحون لأنفسكم أن تصدقوا من يقول لكم إن النور يتولَّد فيها من تلقاء نفسه، وهذا كرسي موضوع أمامكم، فهل تبيحون لأنفسكم أن تصدقوا أي فيلسوف حكيم في العالم إذا قال لكم إنه خرج إلى حيز الوجود من تلقاء نفسه ؟ وهذه الملابس اكتسيتموها، فهل ترون أنفسكم مستعدين لتصديق أي عالم حرير على وجه هذه الأرض إذا قال لكم ما نسجها أحد وإنما قد انتسجت بنفسها ؟ وهذه بيوت منشأة أمام أنظاركم، فهل ترون أنفسكم مستعدين لتصديق أساتذة كل ما في العالم من الجامعات إذا قالوا لكم عن آخرهم إن هذه البيوت ما بناها أحد وإنما ابتنت وارتفعت من عند نفسها.

هذه طائفة يسيرة من الأمثلة أمامكم أتيت بها مما تشاهدونه ليل نهار، فتفكروا، إذا كان عقلكم يأبى أن يعترف عن دكان عادي بأن له أن يسير بنفسه، وإذا كنتم غير مستعدين لأن تعترفوا عن مصنع حقير بأن له أن ينشأ بغير أن ينشئه منشئ أو أن يسير بغير أن يسيِّره مسيِّر، فكيف لكم أن تعتقدوا عن هذا الكون... هذا المصنع العظيم الهائل الذي تشاهدونه جارياً مشتغلاً أمام أنظاركم، والذي تتحرك فيه الشمس والقمر وسائر النجوم الكبيرة والصغيرة كما تتحرك أجزاء الساعة، والذي ترتفع فيه الأبخرة من البحار، وتتكون بالأبخرة السحب وتسوقها الرياح وتنشرها في كل صقع من أصقاع الأرض، ثم تبرد تلك السحب في وقت مناسب وتتحول من الأبخرة إلى الماء مرة أخرى، ثم ينزل ذلك الماء إلى الأرض بصورة قطرات المطر، ثم يخرج من بطن الأرض بفضل ذلك المطر ما لا يحصي من شجرات

باسقة خضراء وثمرات متنوعة الألوان وزهرات متعددة الأشكال — أقول كيف لكم أن تعتقدوا عن هذا المصنع العظيم الهائل أنه قد خرج إلى عالم الوجود من غير أن يخلقه أحد، وأنه سائر من غير أن يسيِّره أحد ؟ إذا قال لكم أحد عن كرسي حقير وقطعة صغيرة من القماش وجدار ضعيف إن كل ذلك تكوَّن بنفسه، فإنكم لا تلبثون أن تحكموا عليه بالخبل والجنون، إذن فكيف لكم أن لا تشكّوا في اختلال عقلٍ من يقول لكم إن الأرض ما تكونت إلا بنفسها، وإن الحيوانات ما وجدت إلا بنفسها، وإن كائناً محيراً للألباب، كالإنسان، ما خرج إلى حيز الوجود إلا بنفسه.

إن الأجزاء التي قد تركَّب منها جسد الإنسان قد نظر فيها علماء العلوم التجريبية بعد فصل بعضها عن بعض، فعرفوا أن ليس فيها إلا مقدار من الحديد، ومقدار من الفحم، ومقدار من القطران، ومقدار من الفسفات، ومقدار من الجير، ومقادير من الملح وكمية من الغازات، وعدد من الأشياء الأخرى من هذا القبيل، مما لا يكلف مجموع قيمته أكثر من عدّة ليرات. خذوا هذه الأشياء بنفس القدر الذي يوجد كل منها في جسد الإنسان ثم خالطوها كيفما تشاؤون وكونوا منها مزيجاً على أي وجه شئتم فإنكم لن تخلقوا إنساناً بأي تركيب أبداً. فكيف لعقلكم — إذن — أن يصدّق بأنه من الممكن أن يتكون بهذه الأشياء الميتة كائن كالإنسان سميع بصير ناطق حيوي يخترع الطائرات والمذياع، من غير حكمة صانع مبِّر عظيم ؟

وهل قد تساءلتم : كيف ينشأ الإنسان ويتكون في مصنع رحم الأم الصغير ؟

لا ضلع في ذلك لخبرة الأب ولا لحكمة الأم : كِيْس صغير تلتقي فيه دودتان هما من دقة الحجم حيث لا يمكن رؤيتهما بغير المجهار تلتقيان في ساعة لا يعلمها أحد، ومن دم الأم نفسها تنالان غذاءهما، وفي جسدها تتجمع مقادير محددة بنسبة محددة من الحديد والقطران والفوسفات وما إليها من الأشياء التي أشرت إليها آنفاً للتحول إلى مضغة، ثم تتكون في هذه المضغة العينان حيث ينبغي أن تكونا، وتتكون الأذنان حيث ينبغي أن تكونا، ويتكون المخ حيث ينبغي أن يكون، ويتكون القلب حيث ينبغي أن يكون، وتتكون العظام حيث ينبغي أن تكون ويتكون اللحم حيث ينبغي أن يكون، باختصار لا يتكون جزء من الأجزاء إلا حيث ينبغي أن يكون في هذا المصنع، ثم تنشأ في هذه المضغة الروح وتتعبَّأ فيها قوة النظر وقوة السمع وقوة المذاق والشم وقوة النطق وقوة التفكير والإدراك... وما إلى ذلك من القوى العديدة التي لا تأتي تحت العد والحصر. وهكذا حين تكتمل بنية الإنسان، يدفعه دفعاً إلى الخارج هذا المصنع (الرحم) نفسه، الذي احتضنه في مرحلة تكوينه إلى تسعة أشهر، بعد أن يتكون فيه على هذه الطريقة بعينها مئات الآلاف من الأفراد البشرية كل يوم بل كل ساعة في العالم، يختلف كل واحد منهم عن غيره في هيئته ونموذجه وصورته ولونه وصوته وقواه واستعداداته وكفاءاته وطبائعه وأفكاره وأخلاقه وصفاته، حتى لا يتجانس فيها شقيقان لم يخرجا إلا من بطن واحد. وهذه أعجوبة لا يتمالك العقل إزاءها سوى الحيرة والدهشة. أما الذي يشاهد هذه الأعجوبة بأم عينه ثم يقول : إن كل هذا يتم، او من الممكن أن يتم، بغير إله لا نهاية لحكمته وقدرته وعلمه وكماله، فما من شك في أن هذا الرجلٍ فقد عقله وما اعتباره بإنسان عاقل إلا إهانة للعقل وحط من شأنه، وعلى الأقل فإني لا أراه إنساناً جديراً بأن أبحث معه في قضية علمية معقولة.

التوحيد

هذا، وتعالوا لنتقدم قليلاً... لا بد أن يشهد عقل كل واحد منكم بأن أي عمل في الدنيا، عظيماً كان أو تافهاً، لا يمكن أن يسير بنظام ووفق قاعدة مطردة ما لم يكن هناك شخص تكون عليه تبعيته ومسؤوليته. أو قد سمعتم بمدرسة فيها عميدان أو دائرة من دوائر الحكومة لها مديران أو جيش له قائدان أو دولة لها رئيسان أو ملكان ؟ وهل تعتقدون، إذا حدث هذا، من الممكن أن يسير النظام على ما يرام ليوم واحد ؟ وطالما جربتم وتجربون في ما يعرض لكم في حياتكم من المعاملات العادية أنه حيثما يترك الأمر على مسؤولية أكثر من رجل واحد يختل النظام ويحصل التخاصم والتصادم، وأخيراً يحدث ما فيه قضاء نهائي مبرم على ذلك الأمر. ولا تجدون في الدنيا حسن النظام والتدبير والتناسق والتوازن إلا حيث تكون قوة واحدة هي الموجِّهة، ويكون وجود واحد هو صاحب السلطة والحل والعقد، ويكون بيده زمام الأمر. أما بغير هذا فلا تكادون تتصورون حسن النظام واستتباب الأمن.

هذا من البداهة والبساطة حيث لا يتردد في الاعتراف به كل من له أدنى حظ من العقل والفهم. وعليه أرجو منكم أن تنظروا نظرة في ما حولكم... انظروا إلى هذا الكون العظيم الممتد بين أيديكم، وإلى هذه البلايين من الكواكب التي تشاهدونها تدور في فلكها، وإلى هذه الأرض التي تعيشون فوق سطحها، وإلى هذا القمر الذي يطلع ليلاً، وإلى هذه الشمس التي تشرق صباحاً، وإلى هذه السيارات من زهرة والمريخ وعطارد وزحل والمشتري وغيرها من النجوم التي لا حد لها ولا حصر، تشاهدونها تدور كالكرامات.. انظروا إلى كل هذا وتأملوا : ما أضبط نظام دورانها ؟ أو قد وجدتم الليل يجيء قبل أوانه ؟ أو قد وجدتم النهار يطلع قبل الساعة المقررة لطلوعه ؟ وهل صادم القمر الأرض قط ؟ وهل حادت الشمس عن مدارها قط ؟ أو قد وجدتم كوكباً آخر أو سمعتم عنه أنه أحاد عن مداره ولو قيد شعرة ؟ وهذه عشرات الملايين من النجوم والتي بعضها أكبر من أرضنا مئات آلاف المرات، وبعضها أكبر حتى من الشمس آلاف المرات، كل هذه مشدودة في ضابطة قوية مهيمنة كأجزاء الساعة، وكلها سائرة في الطريق المحدد لسيرها وبالسرعة المحددة لسيرها، فلا يحدث أدنى فرق في سرعة سير أحد منها ولا له أن يحيد عن مداره شعرة. ولو حدث أدنى فرق في ما قرر بين هذه النجوم من النسب في المسافات للمحة من البصر لاختل نظام هذا العالم بأسره ولتصادمت الكواكب بعضها مع بعض كما تتصادم القطارات.

هذا ما يتعلق بالسماء، وانظروا الآن نظرة في أرضكم وفي ذات أنفسكم... ما كل هذه الآثار، آثار الحركة والنشاط، التي تشاهدونها على وجه هذه الكرة الأرضية إلا قائمة بفضل ضوابط مضبوطة مقررة. إن جاذبية الأرض قد جعلت كل شيء مشدوداً بدائرتها، وهي لو تركت الحبل على الغارب لثانية واحدة، لانتثر نظام هذا العالم. وجميع الأدوات التي تعمل عملها في هذا المعمل كلها تتبّع قاعدة مقررة لا يعتريها تعديل أو تبديل أبداً. فالهواء مقيد بقاعدته، والماء مشدود بقاعدته، والنور مطيع للقاعدة المقررة له، وكل من الحر والبرد ينقاد لضابطته، ولا قبل لأي شيء من التراب والحجر والمعادن والبرق والبخار والشجر والدواب بأن يتعدى الحد المقرر لحياته أو يتغيَّر خصائصه أو يتخلى عن الوظيفة المسندة إليه. ثم إن كل هذه الأدوات تعمل متعاونة متساندة في ما بينها، ومن ههنا فإن كل ما يتم في هذا العالم، إنما يتم لسبب أن كل هذه الأشياء والقوى يسودها الانسجام ويسيطر عليها التناسق.

خذوا – على سبيل المثال – بذرة حقيرة تزرعونها في بطن الأرض. إنها لا تقدر أن تنبت، وتخرج شطأها، وتستوي حتى تصير شجرة ما لم تسهم في تربيتها كل قوى الأرض والسماء متعاونة في ما بينها. فالأرض تهيء لها الغذاء من خزائنها، والشمس تهيء لها الدفء على قدر حاجتها، والماء يعطيها ما تطالبه به، والهواء يمنحها كل ما تستجديه إياه، والليالي تزودها بالنضارة والندى، والأنهر – الأيام – تطورها إلى النضج والقوة بما تمنحها من الحر، وهكذا فإن كل هذه الأشياء حين تعنى بتربيتها متعاونة متكافلة حسب نظام مطرد إلى أشهر وسنوات متسلسلة، تصير شجرة لتؤتي ثمارها... إن كل زروعكم هذه التي تعيشون معتمدين عليها، لا تتهيأ إلا بما تلعب كل هذه القوى المتنوعة غير الآتية تحت الحصر دورها على مبدأ التعاون أو التساند، بل إنكم أنفسكم لا تعيشون إلا لأن كل قوى الأرض والسماء اجتمعت وتلاحمت على تربيتكم، فلو أن قوة منها – كالهواء مثلاً – تخلّت عن هذا العمل المشترك الجماعي، لكان في ذلك قضاء محتوم على حياتكم، ولو أن الماء أبى التوافق مع الهواء والحر، لما نزلت عليكم قطرة واحدة من المطر، ولو أن التراب امتنع عن التعاون مع الماء لجفّت بساتينكم ولما أينعت زروعكم ولما قامت لكم بيوتكم، ولو أن النار أبت أن تتولد باحتكاك الكبريت، لبردت مواقدكم ولتعطلت كل معاملكم ومصانعكم دفعة واحدة، ولو أن الحديد أبى التعاون مع النار لما استطعتم أن تصنعوا إبرة أو سكيناً فضلاً عن أن تصنعوا القطارات والسيارات والطائرات. وباختصار فإن كل هذا العالم الذي تعيشون فيه إنما هو قائم لسبب أن كل دوائر هذه المملكة العظيمة لا تعمل إلا متعاونة متوافقة بينها على أكمل وجه، ولا قبل لأحد من القائمين بأمر هذه الدوائر بأن يتخلى عن واجبه أو لا يتعاون مع القائمين بالدوائر الأخرى حسب النظام الشامل.

كل ما قد بينت لكم آنفاً، هل فيه شيء باطل أو مخالف للواقع ؟ لا أرى أحداً منكم يقول إنه باطل. فهو إن كان حقاً – وهو حق ولا شك – فقولوا لأي سبب هذا النظام الهائل وهذا الانسجام البديع وهذا التناسق الشامل وهذا التوافق المطرد بين ما لا نهاية له من موجودات هذا الكون وطاقاته ؟ إن هذا الكون قائم منذ عشرات ملايين السنين، وتنبت الأشجار على وجه هذه الأرض وتتولد فيها الحيوانات منذ مئات آلاف السنين، ولا نعلم متى حط الإنسان رحله على وجهها، ولم يحدث قط أن يسقط القمر على الأرض، أو تتصادم الأرض مع الشمس، أو يطرأ تعديل على حساب الليل والنهار، أو تنشب حرب بين دائرة (Department) الهواء ودائرة الماء، أو يتمرد الماء على التراب، أو يقطع الحر صلته عن النار. فلماذا كل أقاليم هذه المملكة ودوائرها وكل من يقومون بتسيير أمورها يتبعون القانون العام بكل التوافق والالتزام الشديدين ؟ ولماذا لم تنشب بينهم حرب ؟ ولماذا لم يثر بينهم فساد ؟ ولسبب أي شيء لا يزالون مقيدين بنظام مطرد مضبوط ؟ اطلبوا جواب هذا من قلوبكم... ألا تشهد لكم قلوبكم بأن إلهاً واحداً هو مالك كل هذا الكون وأنه هو الذي قد شدّت قدرته العظيمة كل شيء بضابطة ونظام ؟ ولو كان لهذا الكون إلهان – بل عدة آلهة – لما مشى نظامه بهذا الاطراد والانسجام قطعاً. إن مدرسة حقيرة لا يمكن أن يتحمل نظامُها رئاسة رئيسين، فأنى لهذه المملكة العظيمة، مملكة السموات والأرض، أن تسير بانتظام وانسجام تحت ألوهية إلهين ؟

إذن فما الواقع مقتصراً على أن هذا العالم ما ظهر إلى حيز الوجود بغير خالق، ولكن من الواقع كذلك أن هذا العالم ما أخرجه إلى حيز الوجود إلا خالق واحد... ما الحقيقة مقتصرة على أن ليس نظام هذا العالم بسائر بغير حاكم، ولكن من الحقيقة كذلك أن ليس ذلك الحالكم إلا حاكم واحد. إن اطراد نظام هذا العالم وانسجام قانونه إن كان يدل على شيء، فإنما يدل على أن ليست سلطات الحكم

والأمر والنهي في هذا النظام إلا بيد حاكم واحد لا شريك له ولا منازع، وأن هيمنة قانون هذه المملكة وسيطرته إن كانت تشهد بشيء، فإنما تشهد بأن الملك الواحد الأحد هو الذي له ملك السموات والأرض، وأن ليست الشمس والقمر وسائر النجوم السيارة وغير السيارة إلا في قبضة قدرته، وأن ليست الأرض بكل ما فيها إلا خاضعة لأمره، وأن ليس الهواء إلا منقاداً لقانونه، وأن ليس الماء إلا رهنً لإشارته، وأن ليست الأنهار والجبال إلا تابعة لمرضاته وأن ليست الأشجار والحيوانات إلا مطيعة لإرادته، وأن ليست حياة الإنسان ولا مماته إلا بيده، وأن قبضته القوية هي التي قد جعلت كل شيء قائماً عند حدوده لا يتعداها بحال، وأن ليس في هذا الكون أحد غيره يستطيع أن ينفذ في مملكته أمره أو نهيه.

الحقيقة أن هذا التنظيم المتكامل لا متسع فيه لأكثر من حاكم واحد وهو بحكم فطرته يتطلب أن لا يشارك هذا الحاكم في حكمه أحد غيره في قليل أو كثير... أن يكون هو الحاكم ولا يكون كل من سواه إلا محكوماً، لأن أحداً غيره إذا كانت بيده سلطات الحكم ولو إلى أدنى حد، فمعنى ذلك أن لا نظام في هذا الكون، وإنما يسوده الفساد والفوضى، وذلك الحاكم في تنفيذ حكمه لا يحتاج إلى القوة والقدرة فحسب. لكنه يحتاج كذلك إلى علم شامل ونظر واسع إلى حد أن يكون بإمكانه أن يراقب كل موجودات هذا الكون في آن واحد، وينفذ فيه أحكامه بعد إدراك مصالحه. ولو كانت في هذا الكون مع الله الواحد الأحد آلهة صغيرة أخرى ينقصها النظر الذي تطلع به على الكون كله في آن واحد ولن يكون في يدها سلطة في تنفيذ حكمها في ناحية من نواحي هذا الكون أو في أمر من أموره لاختلّ كل نظامه ولا بد. ولا عجب. فإنه مما تعرفون عن كل آلة، مهما كانت تافهة حقيرة، أنه لو جعل لشخص لا يعرفها تماماً أن يتدخل فيها وينفذ فيها إرادته، فإنه لا بد أن يفسدها ويخل بنظامها. فالذي يقتضيه العقل ويشهد به نظام مملكة الأرض والسموات في غاية من التناسق والتوافق والتعاون أن هذه المملكة لا نصيب في سلطتها الملكية لأي أحد سوى الله وهو مالكها وحاكمها الحقيقي الوحيد.

ما هذا بأمر واقع فحسب، بل الحق أن لا مبرر البتة لأن ينفذ في مملكة الله حكم أحد غيره. فالذين قد خلقهم بقدرته، والذين هم مخلوقاته، والذين إنما يقوم وجودهم بفضله وكرمه، والذين إذا استغنوا عنه لا يمكنهم أن يبقوا للمحة من البصر. من منهم يستحق أن يشاركه في ألوهيته ومملكته ؟ أو قد رأيتم خادماً يشارك سيده في ملكيته ؟ وهل يقبل عقلكم أن يتخذ سيد عبده شريكاً لنفسه ؟ وهل أحداً منكم يجعل أحداً من خدمه مساهماً في عقاره أو حقوقه وصلاحياته ؟ لا بد أن تشهد لكم قلوبكم، إذا ما تفكرتم في هذا، بأن أحداً من العباد لا يستحق أبداً أن يكون شريكاً لله مستقلاً في مملكته، لأن ذلك لا يتنافى مع الواقع فحسب ولا يتنافى مع العقل والفطرة فحسب ولكنه يتنافى مع الحق أيضاً.

السبب الحقيقي لشقاء الإنسان وهلاكه

سادتي وإخواني !

هذه حقائق بديهية يجري عليها نظام هذا العالم. وما أنتم بمنفصلين عن هذا العالم، وإنما أنتم بمثابة جزء في داخله، فهذه الحقائق أساسية بالنسبة لحياتكم كما هي أساسية بالنسبة لكل هذا العالم.

وهناك سؤال قد أصبح اليوم عقدة مقلقة لكل شخص منكم ولسكان الأرض جميعاً، وهو :

ما للأمن والسلام قد طار عن حياتنا نحن البشر ؟ وما للنوازل والكوارث تنزل بنا بين كل يوم وآخر، وما لحياتنا قد أصبحت علينا وبالا وتكدَّر علينا صفوها ؟ وما لكل أمة منا تتشابك وتتصادم مع أمة أخرى ؟ وما لكل بلد في هذا العالم قد أصبح في صراع عنيف مع بلد آخر ؟ وما للإنسان قد تحول ذئباً مفترساً ضارياً للإنسان ؟ وما لمئات الآلاف من أفراد البشرية يذهبون ضحايا الحروب ؟ وما للتجارات والصناعات التي تتجاوز قيمتها عشرات الملايين من الجنيهات تتبدد وتذهب هباء منثوراً ؟ وما للمدن والقرى نراها تتحول قفاراً مع مرور الأيام ؟ وما للأقوياء يأكلون الضعفاء ؟ وما للأغنياء ينهبون الفقراء ويمتصون دماءهم... أما الحكومة ففيها الظلم، وأما المحكمة ففيها الحيف وقلة العدالة، وأما الثورة ففيها البطر والغطرسة، وأما السلطة ففيها الاستكبار والرعونة، وأما الصداقة ففيها قلة الوفاء، وأما الأمانة ففيها الخيانة، وأما الأخلاق فهي خالية من التجرد والإخلاص... فد أصبح الإنسان متهماً في نظر الإنسان، وقد ارتدت اللادينية أقنعة الديانة، وقد توزع بنو آدم إلى ما لا يحصى من الطوائف، وكأن كل طائفة منها أصبحت تعتبر من أعمال البر والثواب أن تضر بغيرها من الطوائف عن طريق الخداع والغش والظلم والعدوان والخيانة والغدر وعن أي طريق ممكن آخر. فما منشأ كل هذه المفاسد والمساوئ وأين مأتاها ؟ أما مملكة الله، فيها — حيثما سرحنا نظرنا — الأمن والسلام، فالنجوم فيها الأمن والسلام، والهواء فيه الأمن والسلام، والماء فيه الأمن والسلام، والأشجار والدواب فيها الأمن والسلام... لا يجري نظام كل المخلوقات إلا بكامل أمن وسلام ولا عين فيه ولا أثر للفساد والفوضى، ولكن ما للإنسان من بين كل هذه المخلوقات قد أصبحت حياته محرومة من هذه النعمة : نعمة الأمن والسلام ؟

هذا سؤال عظيم قد استعصى على الناس علاجه وطالما وجدوا عرق القرية في الرد المقنع عليه، ولكن بودّي أن أجيب عنه على كامل ثقة وطمأنينة، فهذا جوابي عليه إذا آثرت الإيجاز :

" إن الإنسان قد قلب حياته وجعلها متنافية مع الحقيقة والواقع، فهو — لأجل هذا — يعاني ما لا يوصف من المحن والمصاعب، ولن يجد سبيلاً إلى الأمن والسلام حتى يجعل حياته متفقة منسجمة مع الحقيقة والواقع ".

إن أحدكم إذا زعم باب القطار الجاري باباً من أبواب داره وعلى هذا فتحه ثم خرج منه وادعاً مطمئناً كما يخرج من أبواب داره إلى فنائها، فإن سوء زعمه وفساد فهمه لن يحوّل باب القطار باباً من

أبواب داره أبداً ولن يحوّل المكان الذي يسقط فيه باحة داره أبداً إذ الحقيقة لن تتغير قيد أنملة بزعمه الباطل وفهمه الخاطئ. ولا بد، إذا ما خرج من باب القطار الجاري بسرعة متناهية أن تظهر النتيجة الطبيعية المحتومة لهذا الإجراء شاء أو لم يشأ مهما أبى الاعتراف، ببطلان زعمه حتى بعد تكسر رجليه وتشجج رأسه.

وهكذا تماماً... إذا زعمتم في أنفسكم أن هذا العالم لا إله له أو إذا زعمتم آلهة متعددة لأنفسكم أو آمنتم بأحد غير الله إلهاً لأنفسكم، فإن الحقيقة لن تتغير أبداً بزعمكم أو إيمانكم بالباطل، إذ لا بد أن يبقى الله هو الإله الوحيد لهذا العالم، ولا بد أن تبقى كل مملكته هذه التي إنما تعيشون فيها رعايا خاضعين لأمره، في قبضته هو. غير أن الأسلوب والمنهاج الذي تبنونه لحياتكم من جراء سوء زعمكم وفساد فهمكم هذا، لا بد أن تذوقوا وباله وتواجهوا عاقبته الوخيمة، ولو أبيتم حتى بعد مكابدتكم المحن والكوارث، أن تعترفوا ببطلان هذا المنهاج أو الأسلوب لحياتكم.

استحضروا مرة أخرى وجددوا في أذهانكم ما ذكرت لكم آنفا تعرفوا أن الله ما أصبح إلهاً لهذا العالم لأن أحدا غيره جعله إلها لهذا العالم، وهو في غنى عن أن تؤمنوا بألوهيته أو تأبوا الإيمان به، هو الإله الوحيد لهذا العالم آمنتم به أو لم تؤمنوا وألوهيته قائمة بذاتها، وهو الذي خلقكم وخلق هذا العالم، وما كل شيء من الأرض والشمس والقمر وسائر الموجودات في هذا العالم إلا خاضع لأمره، وما كل قوة عاملة في هذا العالم إلا منقادة لسلطانه متبعة لمرضاته، وما كل شيء تعتمدون عليه في المحافظة على حياتكم إلا في قبضة قدرته، بل ليس حتى وجودكم أنتم إلا طيّع لأمره سائر على مشيئته. وهذا واقع ليس لكم أن تغيروه بحال، وهو واقع حتى ولو أبيتم الاعتراف به، وهو واقع حتى ولو أغمضتم عنه أعينكم، وهو واقع حتى ولو تبنيتم لأنفسكم زعماً منافياً له تماماً، ففي كل هذه الصور لا يتغير الواقع قيد شعرة. بيد أن كل ما يحصل من الفرق، فإنما هو أنكم إذا اعترفتم بهذا الواقع ورضيتم لأنفسكم نفس المكانة التي هي لكم في هذا الواقع، يستقيم أمر حياتكم، ونلتم الأمن والسلام، وظفرتم بالسكينة والطمأنينة، وزال عن حياتكم كل زيغ واعوجاج. وإذا رضيتم لأنفسكم بمكانة أخرى، متمردين على هذا الواقع، فلا بد أن تكون عاقبة أمركم عاقبة من زعم باب القطار الجاري باباً من أبواب داره وخطا خطوة إلى خارجه، فأنتم الذين تصابون بالحدث الأليم، وأنتم الذين تتكسر أرجلكم، وأنتم الذين تشج رؤوسكم، على حين أن الواقع لن يتغير أبداً ولن يزال كما هو الآن.

ولكم أن تسألوني الآن : ما هي مكانتنا الحقيقية وفقاً لهذا الواقع ؟

فأقول متوخياً الاختصار :

إذا كنت تربّي خادماً بالإنفاق عليه، فما هي المكانة الحقيقية لهذا الخادم ؟ أهي غير أن يقوم لك بواجب الخدمة ويطيع أمرك، ولا يعمل عملاً إلا وفقاً لمرضاتك، ولا يتعدى حدود الخدمة ؟ أية وظيفة عسى أن تكون للخادم سوى الخدمة ؟ وإذا كنت رئيساً في مكتب وكان لك في ذلك المكتب مرؤوس، فما هي مكانة ذلك المرؤوس ؟ أهي سوى أن يطيعك ولا يزعم لنفسه شراكة في الرئاسة ؟ وإذا كنت صاحباً لعقار فماذا تكون مشيئتك في ذلك العقار ؟ أتكون سوى أن تنفذ فيه إرادتك ولا يتحصل فيه شيء مهم أو غير مهم كنت لا تريده ؟ وإذا فرض ملك من الملوك نفسه على البلاد التي تعيش فيها وكان مستبداً بكل الوسائل والقوى، فأية مكانة عسى أن تكون لكم مع وجود ملك كهذا ؟ أتكون

سوى أن تقتنع بالمعيشة كرعية من رعاياه ؟ ولا تخرج من طاعة القانون الملكي ؟ وأما إذا ادّعيت لنفسك حق الملكية وأنت تعيش في ظل هذا الملك أو اتبعت أمر أحد غيره معترفاً له بالملكية، فلا بد أن تعتبر من البغاة العصاة ولا يخفى عليك المعاملة التي يعامل بها العصاة البغاة. لكم أن تدركوا بهذه الأمثلة على أكمل وجه ما هي مكانتكم الحقيقية في مملكة الله هذه ؟.

- هـــو الذي خلقكم، فمن الطبيعي أن لا تكون لكم وظيفة سوى أن تتبعوا مرضاة خالقكم.
- وهـــو الذي يربيكم وتنالون الراتب من خزانته، فلا مكانة لكم سوى أن تكونوا خدمه.
- وهـــو رئيسكم ورئيس كل من في هذا العالم، فلا مكانة لكم في هذه الرئاسة سوى أن تكونوا على كامل طاعة وانقياد.

وما هذه الأرض ولا كل هذه السموات إلا عقاره، فلا ينفذ ولا ينبغي أن ينفذ في هذا العقار إلا إرادته، ولا يحل لكم أن تنفذوا فيه إرادتكم، ولا بد أن تذوقوا وبال أمركم إذا ما هممتم أن تنفذوا فيه إرادتكم.

وما سيادته في هذه المملكة إلا قائمة بقوتها الذاتية، وما كل ما في السموات والأرض من المصالح أو الدوائر إلاّ في قبضة يده وما أنتم أنفسكم، طوعاً وكرهاً، إلا رعاياه على كل حال. وليس لكم ولا لأي إنسان في هذا العالم، عظيماً كان أم حقيراً، مكانة سوى أن يكون من رعاياه، وقانونه هو القانون النافذ في هذه المملكة، وحكمه هو الحكم الجاري فيها، ولا يحل لأحد من الرعايا أن يطلق على نفسه صفات لا يجوز إطلاقها إلا على الله أو يدعي أنه دكتاتور مستقل بأمره، ولا يحل لفرد أو مجلس نيابي أو تشريعي أو تأسيسي أن ينفذ في هذه المملكة قانونه دون قانون الله ويقول لرعايا الله : اتبعوا قانوننا هذا، ولا يحل لحكومة إنسانية أن تنفذ في هذه المملكة أحكامها مستغنية عن أحكام الله وتقول لعباد الله : اتبعوا أحكامنا هذه، ولا يحل لبشر أو لطائفة من البشر أن ترضى بأن تكون رعايا لأحد من الذين يدّعون لأنفسهم السيادة كذباَ وزوراً بدل أن تكون رعايا لله الملك الحقيقي، أو أن تعترف بقانون وضعه المشرعون الكاذبون نابذة قانون الله الملك الحقيقي وراء ظهرها، أو تتبع أحكام هذه الحكومات الكاذبة الملفقة معرضة عن أحكام الله الحاكم الحقيقي، لأن كل هذه الصور إن هي إلا مظاهر للبغي والتمرد والعصيان، وما حكم كل موقف من هذين الموقفين : أن يدعي أحد من الرعايا لنفسه حقوق الملكية وصلاحياتها أو أن يقبل لأحد غيره دعواه بهذه الحقوق والسلطات والصلاحيات لنفسه إلا حكم البغي والتمرد والعصيان، ولا بد لمن يتخذ أحد هذين الموقفين أن يذوق عاقبة أمره إن عاجلاً أو آجلاً.

إن الله آخذ بناصيتكم وناصية كل فرد من أفراد الإنسانية، فله أن يجرّه إليه متى شاء، ولا قبل لأحد في مملكة السموات والأرض بأن يفرّ منها، وليس بإمكانكم إذا هربتم منها أن تأووا إلى مكان، وإنكم لو تفرقتم ذراً بعد تواريكم في التراب ولو تحولتم رماداً متناثراً في الفضاء ولو كنتم غذاء للأسماك أو انزبتم في البحر بعد إلقاء نفسكم فيه، فإن الله لا بد أن يستجمعكم من كل مكان، لأن كل شيء من الهواء والأرض والماء والأسماك خاضع لأمره لا قبل له بأن يعصيه بحال... لا بد أن تأتوا جميعاً مأخوذين من كل حدب وصوب على إشارة منه، ثم لا بد أن يسألكم فرداً فرداً : كنتم رعاياي فمن أين جعلتم من حق أنفسكم أن تدعوا لأنفسكم السيادة والحاكمية (Sovereignty) ؟ ومن أين جئتم بصلاحيات لتنفيذ الأحاكم في مملكتي ؟ ومَنْ أنتم حتى تنفذوا في مملكتي قانونكم ؟ وكيف رضيتم لأنفسكم أن تعبدوا غيري وكنتم من عبادي ؟ ولقد كنتم من خدمي ولكنكم أطعتم أحكام غيري، وقد كنتم تنالون الراتب من خزانتي ولكنكم اعتقدتم في غيري أولياء رازقين لكم، وقد كنتم عبيدي

ولكنكم طأطأتم رؤوسكم أمام غيري، وقد كنتم تعيشون في حدود مملكتي ولكنكم رضيتم لأنفسكم بقوانين غيري واستسلمتم لقياده، فكيف جاز لكم هذا البغي والعصيان ؟

قولوا لي بالله يا إخواني ! من منكم يملك ما يدافع به هذه التهمة عن نفسه ؟ وأي محام يستطيع أن ينجيكم من بطش الله بحيله ومراوغاته القانونية ؟ وأي شفاعة ترجونها لتسلموا من عقوبة هذه الجريمة : جريمة البغي والعصيان ؟

منشأ الشقاء

سادتي وإخواني !

ما المسألة هنا مسألة الحق فحسب، ولكن هنا مسألة أخرى أيضاً ألا وهي : هل من الممكن أن يكون الإنسان في مملكة الله هذه أهلاً للسيادة أو التشريع أو الحكم ؟ إنكم لتعرفون عن أي جهاز من الأجهزة، مهما كان حقيراً، أنه إذا تولى تشغيله رجل جاهل به فإنه لا بد أن يخربه. وعلى سبيل المثال مُرُوا رجلاً لا يعرف فن قيادة السيارة أن يسير لكم السيارة، فإنكم لا تلبثون أن تعرفوا عاقبة هذا الحمق. فتأملوا : إذا كان هذا هو الحال لجهاز صغير من الحديد يستحيل تشغيله بدون معرفة صحيحة، فكيف يكون من الممكن بالنسبة للإنسان الذي أنفاسه في غاية من التعقيد، والذي لمسائل حياته ومعاملاتها ما لا يحصى من النواحي، وفي كل ناحية ما لا يحصى من العقد والمعضلات، فكيف يكون من الممكن أن يقوم بتسيير جهاز الإنسان المرتبك المتداخل أناس لا يعرفون أنفسهم تماماً فضلاً عن أن يعرفوا غيرهم ؟ وأمثال هؤلاء المتعالمين من الناس حين ينصبون أنفسهم لمهمة التشريع، وأمثال هؤلاء السفهاء حين يستعدون لتسيير دفة الحياة الإنسانية فهل تكون عاقبة ذلك مختلفة عن عاقبة تسيير رجل جاهل السيارة أدنى اختلاف ؟ ومن هنا فإن البقاع الأرضية التي يطيع سكانها القوانين الوضعية بدل أن يطيعوا قانون الله، والتي ينفذ فيها بعض الناس أحكامهم مستغنين عن طاعة الله، ويتبع الآخرون هذه الأحكام، لا أمن فيها ولا سلام ولا استقرار ولا طمأنينة ولا تجري فيها أجهزة الحياة الإنسانية بتوافق وانسجام : تقتل فيها النفوس وتسفك الدماء ويزدهر فيها الظلم والجور والعدوان والنهب والسلب. وقد أصبح فيها الإنسان يمتص دم أخيه الإنسان وتدهورت فيها الأخلاق وقد أفضى بها الأمر إلى أن القوى التي كان وهبها الله للإنسان، عادت تصرف في ما يرجع على الإنسان بالشقاء والدمار والهلاك بدل أن تصرف في ما يرجع عليه بالسعادة والأمن والرفاهية. فدار العقاب هذه التي قد أعدها الإنسان لنفسه بنفسه في هذه الدنيا، ليس لها من سبب سوى أن الإنسان عبثاً حاول أن يتولى تسيير جهاز لا علم له بتركيب أجزائه، إن هذا الجهاز لا يعرف أسراره إلا الذي قد صنعه، وهو يعرف طبيعته وهو الذي يعرف كيف يمكن أن يسير بتوافق وانسجام. أما الآن فإن كف الإنسان نفسه عن ارتكاب هذه الحماقة والتزم باتباع القانون الذي قد شرعه الذي صنع هذا الجهاز، فعسى أن يصلح من جديد ما قد فسد حتى الآن، وإلا فلا علاج لما هو فيه الآن من المصائب والمهالك ومهاوي الشقاء والخسران وأسباب الويل والثبور.

لماذا زال عن الدنيا العدل والإنصاف ؟

أنكم ذا أمعنتم النظر في هذه القضية بجد واهتمام، فلا بد أن تجدوا لفساد حياتكم مبعثاً آخر عدا الجهل.

إن مقداراً يسيراً من العقل كاف لتدركوا : أن ليس الإنسان بعبارة عن فرد أو أسرة أو أمة، بل الناس كلهم من أي جنس كانوا أو إلى أي أرض ينتمون أناس على كل حال، ولهم جميعاً حق الحياة، ومن حقهم جميعاً أن تتحقق لهم حاجاتهم، ومن حقهم جميعاً أن يتمتعوا بالأمن والعدالة والعز والكرامة. فإن كانت " الرفاهية الإنسانية " عبارة عن شيء فما هي بعبارة عن رفاهية فرد أو أسرة أو أمة مخصوصة، وإنما هي عبارة عن رفاهية أفراد الإنسانية كلهم أجمعين، وإلا فليس لكم أن تقولوا، إذا كان فرد منهم في الرفاهة وكان عشرات منهم في البؤس : إن الإنسان رافه. كما أن السعادة إذا كانت عبارة عن شيء، فما هي بعبارة عن سعادة فرد أو طبقة أو أمة مخصوصة، وإنما هي عبارة عن سعادة أفراد الإنسانية كلهم أجمعين، وليس لكم أن تقولوا، إذا كان فرد منهم سعيداُ وكان عشرات منهم أشقياء، إن الإنسان سعيد.

إذا صح هذا، فتفكروا : كيف وبأي طريق يمكن أن تتوفر السعادة والرفاهية الإنسانية ؟ ولا سبيل لحصولها في نظري إلا أن لا يتولى وضع نظم الحياة الإنسانية إلا من كان أفراد الإنسانية كلهم متساوين في نظره كأسنان المشط، ولا يقرر الحقوق لهم جميعاً إلا من كان فوق كل غرض شخصي و لم يكن مشغوفاً بأغراض فرد أو أسرة أو طبقة أو بلد أو أمة بصفة مخصوصة، ولا يطيع الجميع إلاّ من كان لا يخطئ في إصدار أحكامه ولا يستغل سلطات الحكم والسيادة استغلالاً جائراً انحرافاً وراء الأهواء ولا كان عدواً لهذا وصديقاً لذلك أو مناصراً لهذا ومعارضاً لذاك، ومائلاً إلى هذا ومتذمراً عن ذاك.. لا يمكن أن تقوم العدالة في الأرض إلا هكذا، ولا يمكن ان ينال كل أفراد الإنسانية وكل أممها وشعوبها وكل عناصرها وطبقاتها حقوقها إلا هكذا، ولا يمكن أن يزول الظلم والعدوان عن وجه الأرض إلا بهذه الطريقة.

إذا صح ما قلت، فإني أسألكم : هل من الممكن أن يوجد في الدنيا إنسان نزيه كهذا، ومحايد كهذا ونظيف كهذا، وبريء من كل مواطن الضعف الإنساني كهذا ؟ فلعل أحداً منكم لن يتجرأ على أن يجيب عن سؤالي هذا بالإثبات... إذ ليس هذا إلا من شأن الله جل وعلا، وما لأحد غيره أن يشاركه فيه. أما الإنسان، فمهما كان بالغاً من العظمة والقوة لا يخلو من أغراض شخصية ومصالح ذاتية، ويربطه أحد من الناس ما لا يربطه بأحد غيره، وهو يحب أحداً من الناس ويبغض غيره. فهذا الضعف البشري، من المستحيل أن يكون أحد من أفراد الإنسانية بريئاً منه بحال، ومن هنا فإن البلاد التي تطبق فيها القوانين الوضعية دون قانون الله، ويتبع أهلها أحكام البشر دون أحكام الله، يوجد فيها الظلم والجور والعدوان بصورة من الصور.

انظروا إلى هؤلاء الملوك وأفراد البيوتات الملكية الذين خصوا أنفسهم بحقوق امتيازية قسراً، وقد جعلوا لأنفسهم من العز والكرامة والمكانة الرفيعة وموارد الدخل والحقوق والسلطات ما لا يشاركهم فيه أحد من غيرهم. فهم فوق القانون ولا يجوز أن تقام عليهم دعوى، ولهم أن يفعلوا ما شاؤوا وشاءت أهواؤهم، إذ لا يحل لأحد أن يرفع أمرهم إلى المحكمة ولا لأية محكمة أن تأمرهم بالمثول لديها

للدفاع عن أنفسهم. وإن الدنيا كلها تشهد أنهم يخطئون ولكن مما يقوله القائلون ويؤمن به المؤمنون : " إن الملك متره من الخطأ "، وإن الدنيا كلها تشهد أنهم أناس كغيرهم خلقوا من لحم ودم أي فرد من أفراد البشر إلا أنهم بفرض أنفسهم آلهة لغيرهم يجلسون فوقهم جميعاً والناس يقومون أمامهم مكتوفي الأيدي خاضعين خائفين فزعين كأنهم هم الذين بأيديهم رزقهم وحياتهم ومماتهم، إنهم يمتصون دماء رعاياهم وينهبون أموالهم بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة ثم يبذرونها تبذيراً في ما يتخذون لأنفسهم من القصور والمراكب وأدوات الترف والزينة والتفرج، حتى أن كلابهم لتتناول من ألوان الطعام والشراب ما لا يناله ولا الرعايا الذين يدفعون إليهم الضرائب من مكاسبهم. فهل هذا عدل ؟ وهل هذا طريق يكون من سنَّة عادل، حقوق جميع البشر ومصالحهم في نظرة متساوية ؟ وهل يرجى من هؤلاء أن يضعوا للإنسانية وأفرادها قانوناً يقوم على مبادئ الحق والعدالة ؟

انظروا إلى هؤلاء البراهمة ومشايخ الطرق... انظروا إلى هؤلاء الأمراء والأغنياء والمترفين والمرابين... انظروا إلى أصحاب المصانع الكبيرة وملاك الأراضي الواسعة الشاسعة.. كل هؤلاء يعتقدون أنفسهم أنهم فوق عامة أفراد الإنسانية، ومن هنا فإن كل ما وضع في الدنيا من القوانين والشرائع تحت نفوذهم وسلطانهم، يعطيهم من الحقوق ما لا يعطيه لعامة الناس كأنهم أطهار وغيرهم أنجاس، وهم أشراف وغيرهم أرذال، وهم أعلون وغيرهم أسفلون، وهم لِيَنهبوا ويسلبوا وغيرهم لِيُنهبوا ويُسلبوا، ويُضحَّى في سبيل أهواء نفوسهم بكل شيء من نفوس عامة الناس وأموالهم وأعراضهم. فهل من الممكن القول بأن هذه الضوابط قد وضعها منصف ؟ أو لا ترون فيها الأثرة والانحياز بصراحة ؟ أو من الممكن أن يتم وضع قوانين عادلة في مجتمع يسيطر عليه أمثال هؤلاء ؟

انظروا إلى هذه الأمم الحاكمة التي قد استعبدت أمماً غيرها معتمدة على ما لديها من القوة. فأي قانون من قوانينها وأي نظام من نظمها لا تسري الأثرة في عروقه ؟ إن أفرادها يعتبرون أنفسهم أناساً من الدرجة العليا، بل يعتقدون أنهم هم الناس دون غيرهم. أما أفراد الأمم الضعيفة فما هم في نظرهم أناس بمعنى الكلمة، وإن كانوا فمن الدرجة السفلى. لأجل هذا فإنهم يعتقدون أنفسهم فوق غيرهم من كل جهة، ويرون من حقهم أن يضحوا في سبيل أغراضهم بمصالح غيرهم. وهذا اللون موجود في كل ما تم وضعه في الدنيا من القوانين ومنظم تحت نفوذهم وتأثيرهم.

هذه نبذة يسيرة من الأمثلة ذكرتها على سبيل الإشارة. ولا يسمح المقام بذكر التفاصيل، وكل ما أريد بيانه لكم وإلقاءه في روعكم هو أن الإنسان حيثما نصب نفسه للقيام بعملية وضع القانون في الدنيا، فإن الجور والظلم قد حصل فعلاً و لم يكن من حصوله بد، فمن الناس من قد أُعطوا أكثر من اللازم من حقوقهم المشروعة، ومنهم من لم يحرموا من حقوقهم المشروعة فحسب بل لم يُدَّخر جهد في حطهم من مستوى الإنسانية. ويرجع السبب في ذلك إلى ما في الإنسان من ضعف، وهو حين يتصدر للقضاء في أمر ما تتجاذبه مصالح ذاته أو أسرته أو سلالته أو طبقته أو شعبه أو أمته، ولا يجد في قلبه من العطف والرعاية ما يجد لنفسه وذويه أثناء تقرير الحقوق وتحديد المصالح.

فقولوا لي بالله، هل ثمة من علاج لهذا الظلم والعدوان غير أن نضرب عرض الحائط بكل ما وضع الإنسان من القوانين والنظم للحياة الإنسانية ونصبح لا نؤمن إلا بقانون الله الحي القيوم الذي لا فرق بنظره بين إنسان وإنسان، وإن كان، فإنما هو باعتبار أخلاقه وأعماله، لا باعتبار جنسه أو طبقته أو قوميته أو لونه.

كيف السبيل إلى السلام ؟

سادتي وإخواني !

إن هذه القضية لها ناحية أخرى لا أبيح لنفسي أن أصرف عنها النظر :

مما لا يخفى عليكم أن هناك أمراً وحيداً هو الذي بإمكانه أن يضع حداً لجماح الإنسان وشراسته في هذه الدنيا، ألا وهو شعوره بما عليه من التبعة والمسؤولية. فإن أيقن شخص في هذه الدنيا بأن له أن يفعل ما يشاء وليس هناك من يسأله عما يفعل ولا هناك فوقه قوة تعاقبه على ما يفعل، فلا جرم أنه لن يكون ثمة حد لجماحته وشراسته. وكما أن هذا صحيح فيما يتعلق بفرد، فإنه صحيح كذلك في ما يتعلق بأسرة أو أمة أو سكان الأرض جميعاً. وذلك أن أسرة ما حين تطمئن بأن ليس لأحد أن يسألها عما تفعل، تتعدى حدودها المشروعة، وتأبى أن تقف عند حد من الحدود، وأن طبقة كذلك حين تأمن على نفسها كل مسؤولية واستجواب، لا يردعها شيء عن ظلم الآخرين والاعتداء على حقوقهم، وأن أمة أو دولة حين تجد نفسها قد بلغت من القوة والعظمة حيث لا تخاف على نفسها مغبة اعتداءاتها، تشرع في افتراس من حولها من الأمم الضعيفة كما يفترس الذئب الغنم في الغابة. وهذا من أهم وأعظم أسباب ما يوجد في الدنيا اليوم من القلق والاضطراب. فما دام الإنسان لا يؤمن بأن هناك فوقه من لا بد أن يسأله عن أعماله وتصرفاته وأنه قوي قادر على معاقبته، من المحال البتة أن ينغلق في الدنيا باب الظلم ويسودها الأمن والسلام الصحيح.

وقولوا لي الآن :

أي قوة غير قوة رب العالمين من الممكن أن تكون قوة رادعة كهذه ؟ أما أبناء البشر أنفسهم، فمن المحال أن يكون أحداً منهم بالغاً هذه الدرجة من القوة، لأن كل إنسان — فرداً كان أم طائفة — تنزلونه هذه المنزلة، من الممكن أن يتحول هو نفسه إلى حر طليق لا يعرف لأعماله ولتصرفاته حداً، ولا يؤمن منه أن يصير هو نفسه أكبر فرعون في الأرض، ولا يستبعد منه أن يستخدم دواعي الأثرة والانحياز ليرفع أناساً ويضع آخرين. لقد كان الغرب ألَّف عصبة الأمم لمعالجة هذه المعضلة، ولكنها ما لبثت إلا قليلاً حتى تحوَّلت إلى عصبة للأمم خاصة بالبيض. وبعد أن صارت أداة في يد دول قوية أباحت لنفسها أن تعبث بحقوق الأمم الضعيفة ولا تنصفها من الأمم القوية كلما ظهر الخلاف بينها وبينها [١]. فهل من شك بعد هذه التجارب في استحالة بروز قوة من بين أبناء البشر أنفسهم يكبح خوف المسؤولية أمامها جماح الدنيا بأسرها أفراداً وأمماً ودولاً ؟ إن قوة كهذه لا بد أن تكون خارجة من الدائرة الإنسانية وفوقها. وقوة رب العالمين هي التي تقدر أن تحقق هذا الأمر. فإن كنا لا نريد لأنفسنا شراً، فلا مناص لنا البتة من أن نؤمن بالله ونسلم أنفسنا إلى حكومته العادلة رعايا خاضعين منقادين لا نعصي له

١- وعلى هذا الحال الآن جمعية الأمم المتحدة، فمن المحال قطعاً أن تنال الأمم الضعيفة عدلاً بواسطتها في مقابل القوية أو خلافاً لمصالحها وأغراضها الاستعمارية.

أمراً، ولا نعيش في هذه الحياة إلا مستيقنين بأنه سبحانه وتعالى يعلم كل ما ظهر أو خفي وكل ما جلّ أو دقّ من أمورنا، وأنه لا بد أن يأتي علينا يوم نقوم في محكمته ليحاسبنا عن كل أعمالنا وتصرفاتنا التي قمنا بها في حياتنا الدنيا. وإي والله... لا سبيل هناك غير هذا السبيل لنعود أناساً صالحين متمتعين بالأمن والسلام.

شبهة

وقبل أن أنهي هذه الخطبة أرى لزاماً على نفسي أن أزيل شبهة ربما تكون تخالج قلب كل شخص منكم، وهي : أن مملكة الله لما كانت تبلغ من العظمة والهيمنة حيث ليس كل شيء من ذرة في الأرض إلى الشمس والقمر إلا في حوزتها، وإنه لما لم يكن الإنسان في مملكته مجرد عبد خاضع لأمره، فكيف أمكن الإنسان أن يخرج من طاعته ويعلن نفسه ملكاً على رعاياه وينفذ فيهم قانونه ؟ وما لله لا يمسك بيده ولا يعاقبه ؟ إن هذا السؤال سوف أرد عليه بمثل بسيط :

هب أن ملكاً يرسل أحداً من رعاياه نائباً من قبله على مديرية من مديريات مملكته... ما المملكة إلا مملكة الملك وما الرعايا إلا رعايا الملك وما كل شيء من القطار والبرق والهاتف والجيش وسائر الأجهزة إلا بيد الملك، وإن سلطة الملك محيطة بتلك المديرية من كل جانب، فما رئيس تلك المديرية (أي نائب الملك) شيئاً يذكر بإزاء الملك، وللملك، كلما شاء، أن يرغمه على أن لا يحيد عن أمره ولا قيد شعرة. إلا أن الملك يريد أن يمتحن عقل ذلك الرئيس ومروءته وكفاءته، فيرخي عنانه ويترك أمره على غاربه ويوسع له في غيه حتى ليظن أن لا قوة هناك فوقه.

وهذا الرئيس إن كان عاقلاً وفياً شاعراً بالواجب، فإنه لن يعتقد نفسه إلا أحد رعايا الملك وخدمه على رغم ارتخاء العنان، ولن يحكم في مملكة الملك إلا وفقاً لقانون الملك، ولن يمارس ما أعطاه الملك من السلطات والصلاحيات إلا وفقاً لإرادة الملك. وبهذا السلوك القائم على مبدأ الوفاء والولاء تتحقق أهليته ولا بد أن يرفعه الملك درجات ويجعله من خدمه المقربين إلى جنابه حين يجده أهلاً للمراتب العليا هكذا.

ولكن هب أن ذلك الرئيس سفيه عديم العقل والمروءة شرير النفس لا يقيم للوفاء وزناً، وأن أفراد الرعايا الساكنين في تلك المديرية جهال جبناء سفهاء، فهو حين يرى حبله على غاربه وعنانه مرتخياً من قبل الملك، ينفخ في أوداجه شيطان الغرور والخيانة، وتداعب نفسه فكرة الاستقلال والخروج من طاعة الملك فيعتقد نفسه مالكاً لتلك المديرية، ويتصرف في أمورها على هواه مستغنياً عن الملك وقوانينه، وأفراد الرعايا الجهال يعترفون له بالسيادة والاستقلال لمجرد رؤيتهم أنه هو الذي يعطيهم الرواتب، وأن بيده الشرطة والمحاكم، وأن في قبضته أغلال السجون وأعواد المشانق، وأن عنده من السلطات ما يستطيع أن يجعلهم به سعداء أو أشقياء في حياتهم.

أما الملك فهو غير غافل عن سلوك ذلك الرئيس الخائن وسلوك أولئك الرعايا الجهال جميعاً، وهو إن شاء أخذه وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، إلا أنه يريد أن يمتحنه ويمتحنهم جميعاً، فيسلك مسلك الإناءة والحلم والإمهال والإنتظار فيرخي العنان في وجوههم حتى يبدو للعيان كل ما يكنون في نفوسهم من مواطن الخيانة والغدر، ويغلقوا على أنفسهم كل باب من أبواب الاعتذار. إنه قوي عزيز لا يخاف أن يتقوى ذلك الرئيس ويستفحل شأنه حتى يبلغ حيث يسلبه عرشه، ولا يخاف كذلك أن يفلت هؤلاء

الرعايا الخائنون الخارجون من طاعته بزعمهم من متناول يده. فلا حاجة به أن يقضي في شأنه وشأنهم على عجل، فيملي لهم ويوسع في غيهم إلى سنة تلو سنة، حتى إذا أعلنوا كل ما تنطوي عليه نفوسهم من الخبث والشراسة على أكمل وجه وأوفره، يفاجئهم بعذابه، وحين يأتي عذابه لا يستطيعون ردّه بحيلة ولا يجدون سبيلاً للتوبة والاعتذار.

سادتي وإخواني !

أنا وأنتم وكل هؤلاء الذين جعلهم الله رؤساء في أرضه نواجه هذا الامتحان، وكلنا ممتحنون في عقلنا ومروءتنا وشعورنا بالواجب ووفائنا، فعل كل واحد منا أن يقرر عند ذات نفسه : هل يجب أن يكون وفياً أم خائناً لملكه الحقيقي ؟ أما أنا فقد قررت عند نفسي أن أتبع سبيل الإطاعة والوفاء، وأنا خارج من طاعة كل من قد خرج من طاعة الله. فمن شاء منكم فليسلك طريق الطاعة والوفاء ومن شاء فليسلك طريق المعصية والخيانة. ففي جانب متاعب ومنافع يستطيع القوم البغاة إيصالها إياكم، وفي الجانب الآخر متاعب ومنافع يقدر الله أن يصيبكم بها فلكم أن تختاروا إحدى السبيلين. وقل هذا سبيلي أدعو إلى الله أنا ومن اتبعني.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المحتويات

هذه دعوتنا

- دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

- دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله ، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

- دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

- دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين ، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك　　وأحبار سوء ورهبانها

- دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

- دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

- ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.

